

اللغة العربية بين استيعاب الماضي والتطلع إلى المستقبل.

د/عزوز زرقان

جامعة محمد البشير الإبراهيمي

- برج بوعريش -

ليس من نافلة القول الجزم بأن انتشار النظام الجديد المسمى بالعمولة يجعل كل عربي يتخذ موقف المستفهم عن مضمون الاختلاف بين الثقافات، وبالتالي عن مستقبل وهوية ومصير كل شعب من شعوب الدول النامية. ولعل هذا النوع من الاسئلة - الذي يصل إلى حدود الخوف - يخص وضع اللغات التي لا تنتمي إلى ما يعرف بالثقافة المهيمنة - ومن بين هذه اللغات، لغتنا العربية، وماذا ينتظرها مستقبلا.

فإذا ما أردنا الكلام عن القيم الذاتية للغة العربية، وجدنا ذلك جليا وواضحا في سياقها التاريخي، بل وملفتا للنظر، حيث كانت تحمل رسالة انسانية مميزة إنها لغة متطورة تتسم بالتجدد والقدرة على الاستيعاب. بل إن أهم ما يميز اللغة وما يمكنها أن تذخر به، أنها قادرة على القيام بالدور الذي تقوم به أي لغة معاصرة أخرى. ولعل ذلك يبدو من خلال التأكيد على علاقة اللغة بذات الإنسان ومحيطه ومجتمعها، وذلك من المنظور الخاص بطبيعة التحدي الذي يجابه الإنسان المعاصر، والوسائل التي علينا اعتمادها في سبيل اللحاق بركب الحضارة السريع الوتيرة.

إن لكل لغة دور فعال في تفعيل وتحريك الواقع الاجتماعي للأفراد الذي يستعملونها وتغييره لمساعدتهم على مواكبة تطور هذا المجتمع، إن من خلال تضمين رؤيته للعالم المحيط، أو من خلال التأثير في رؤية الواقع الخارجي بكل حيثياته وجزئياته على اعتبار وعلى قاعدة أن كل لغة عموما - والعربية على وجه أخص - تعكس الأمة ذاتها وصورتها ومكانتها نفسيا واجتماعيا وثقافيا، فضلا عن أنها تعبر عن أعماق هويتها الفردية والجماعية.

لقد مرّ حين من الدهر، كان للعربية والعلم شأن كبير يوم أن كانت للحضارة العربية نصيبها وحظها الوافر من الحضور والوجود، فكانت العربية "اللغة العلمية، تحتكر المؤلفات العلمية، ولا تنتشر إلا بها، فمن أراد أن ينشر علما يقرأه الناس لجأ إلى العربية"⁽¹⁾ فكانت بذلك وعاءً يستوعب كلّ المشكلات والقضايا العلمية والمعرفية، وما وقفت عاجزة أمام التحديات الحضارية الأخرى، بل أبعد من ذلك يُنذر عليك أن تجد من اشتكى من عجز واستحالة اللغة

وعدم تليبيتها لمختلف متطلبات القيم العلمية والتقنية الخلية أو الرافدة. وكما قال الشاعر: حافظ ابراهيم:

أنا البحر في أحشائه الدر كامنٌ * فهل سألوا القواص عن صدّاتي

فقد كانت اللغة العربية، وهي لسان حال الأمة العربية والمسلمة، لغة تحمل رسالة إنسانية سامية بمنظومتها المفهوماتية والفكرية، وارتقت لتكون لغة حضارة إنسانية اشتركت فيما أمم شتى، وكان العرب نواتها الأولى، فكانت لغة الحقائق العلمية المختلفة من - رياضيات وطبيعة وفلسفة وفلك وحساب، بل ولغة للحكم والتشريع وللتجارة ومختلف الأعمال، بل ولغة المنطق والتصوف والأدب والفن... إلخ.

فما كانت اللغة لتوصف في يوم من الايام بالقصور على احتواء واستيعاب هذا الزخم المعرفي العلمي المعاصر، فكيف توصف بذلك وقد استوعبت ما سبق ذكره في الماضي وبعد أن أثبتت كفاءة مميزة، وقدرة لا نظير لها مقابل نظرياتها من اللغات.

فلقد تأقلمت مع كلّ ما جدّ من علوم آنذاك في الجامعات العربية، بل كما يرى الأستاذ - عز الدين صحراوي - "أنّ وجود بعض الآراء والمواقف التي تدعمها وتقوم عليها النظريات الغربية المعاصرة المجسدة في تراثنا يوحى بأنّ تفكير ونتاج علمائنا كان باللغة العربية وليس بغيرها.."(2)

ويقول الدكتور: أحمد سيد محمود في كتابه: شؤون لغوية: "لقد بلغ العرب في ماضيهم مكانة أذهلت الغربيين بعد أن عربوا علوم الحضارات الأخرى ومعارفها وأراد الغربيون أن يتخذوا حذو العرب ويقلدوهم، وينقلوا علومهم ومعارفهم ويلحقوا بركب حضارتهم، فوجدوا أنفسهم لما طفقوا ينهضون عاجزين عن محاكاة العرب وبلوغ شأنهم في العلوم والكتابة والبيان"(3).

وبالتالي فإنّ العربية ما وصلت إلى ما وصلت إليه، وما أثبتت أنّها لغة متطورة وعلمية إلّا بعد احتكاكها بحضارات وثقافات متنوعة، وما خلفته من علوم شتى في مختلف دروب المعرفة، ولربما ساعدها في ذلك نشاط الحركة اللغوية التي جعلت منها لغة قادرة على التعبير عن خلجات النفوس، ومبتكرات العقل والفكر.

بل فضلا عن ذلك أثبتت أنّها لغة قادرة على استيعاب الألفاظ الدخيلة "فأشكال الألفاظ العربية هي من جهة أبنية وقوالب وهيئات، ومن جهة أخرى أوزان موسيقية تدركها الأذن

بسهولة ويسر، فيدرك السامع جزءًا من المعنى مجزء إدراكه وزن الكلمة" (4)، والأبعد من ذلك أنّ العربية تتسم بقدرة ذاتية على نقل الفكر الإنساني وتمثيله، كما لديها القدرة على استيعاب المصطلحات وتمكينها من البروز في تصانيف علمائها مما مهّد الطريق لنظريات علميّة ومعرفيّة.

يقول الأستاذ أمين عثمان: "وتكاد تنفرد اللّغة العربيّة عن اللّغات الحيّة الأخرى بخاصيّة وفرة الألفاظ الدّالة على الشيء منظوريًا إليه في مختلف درجاته وأحواله ومتفاوت صورته وألوانه" (5). واللّغة كما هي عند أصحاب —علم الدّلالة— والعارفين بالحقول الدّلالية وتفرّعاتها وتمفصلاتها، يرون "بأنّها في جميع المستويات، إنّما هي أداة يكون لها من الصّلاحيّة الناجحة، بقدر ما يكون لمستعملها من الكفاية والبراعة" (6)، ومعنى ذلك أنّ مدلولات الألفاظ والمصطلحات بها، إنّما تتطوّر تبعًا لتطوّر الشؤون الاجتماعية المحيطة بهذا المدلول.

ومثل هذا الكلام يجعلنا نعرّج على العلاقة التي تربط اللغة بالجماعة والمجتمع عمومًا، فاللّغة تعدّ مؤسسة اجتماعية تتنوّع بتنوّع الشعوب والأفراد، وتحمل وظيفة رئيسية هي وظيفة —الاتصال— ذلك أنّ هدفها الرئيس هو التّعبير عن الأفكار والرّغبات والعواطف ضمن هذه المجموعة البشريّة التي تتكلّمها. وحقيقة الأمر أنّ الابتسامة، التّظّرة، حركة اليدين وغير ذلك... وعلى الرغم من هذه الوسائل التواصلية صوتيّة مليل الإنسان إلى رؤية الواقع بطريقة رمزية"، فاللّغة كما يرى علماء اللغة "نظام الأنظمة الرّمزية" في الحياة البشريّة.

وبالتالي فموضوع علاقة اللغة بالإنسان والمجتمع استقطب اهتمام علوم اللغة والتواصل البشري مطلع القرن العشرين، كما كان الموضوع الاساس عند فلاسفة اللغة من قبل. والحقيقة أن هناك فلاسفة عديدين منحوا اللّغة حظًا وإفرا من الاهتمام، فجعلوا منها حقولا خصبة وشاسعة لدراساتهم، سيّما أنّ معظمهم رآوا في اللغة أحد هذّين الأمرين أو كلاهما معًا: إمّا أن تكون اللّغة مرآة إلى التّعرف لذاته ومحيطه. معنى ذلك مكوّننا لهذا الفكر. فاللّغة سبيل المؤرّ إلى التّعرف لذاته ومحيطه. معنى ذلك أنه لابد من الاعتراف بأهميّة اللّغة في تكوين المفاهيم العقلية والتصورات الذهنية عند الإنسان، وهذا بدوره يقودنا إلى التأكيد على أنّ معرفة اللغة كبنية فكرية هي السبيل الوحيد لمعرفة القوالب الفكرية الأخرى عند البشر، مثل الفكر الأسطوري، والفكر الدّيني، والفكر العلمي، والفكر الفنّي. فماذا بعد هذا؟ أردت القول بأنّ هذه المعطيات السّالفة الذكر، تجعلنا نشدّد على أهميّة الممارسة اللغويّة في حياة الفرد والجماعة، فالإنسان يعيش دائمًا حاضره انطلاقًا

من وعيه للزمن، للوقت التاريخي الذي تتطور فيه الأمم، أي انطلاقاً مما هو أوسع من الحاضر، ومما يتعلق بذاته وبموقعه وعلاقته بذلك الزمن. فالمختصر أردت القول: أنّ اللغة فعلاً تُعدّ وعاءً ضخماً متعدد المشارب، يخدم الفرد كما الجماعة على حدّ سواء، وإذا كان ذلك من أهمّ سماتها، فلا بدّ من الوقوف وقفة تأمل أولاً، وعمل ثانياً، إلى وضع اللّغة -لغتنا- التي لا تنتمي إلى الثقافات المهيمنة -كما يحلو للبعض تسميتها- هل سترها تصمد شاحخة أمام هذا الخطر الذي يهدّدها بين الحين والآخر، أم تراها تسخر مقدراتها مجدّداً للوقوف في وجه هذا الزحف المخيف الذي يهدّد كيانها ويكاد يدكّ أوصالها، ويزلزل عرشها، باتهامها بالعجز حيناً، وبالقصور أخرى.

وهلى ترى سيأخذ أهلها يمينها وشمالها لمواجهة هذا المدّ الغربيّ المتهافت والمشكّك في مقدراتها وعطائها؟ لقد حان الوقت ليفكر أهل اللغة، بجديّة حقّة ويحزموا أمرهم، لمواجهة ظاهرة العولمة التي قد تأتي على الأخضر واليابس، على اعتبار أنّها ترى ما ليس لها ملجأ لها، وأن ما خالفها وجب أن يعيد التفكير ليسير وفق مشيئتها، وما ترتضيه وترسمه وتخطّطه -إنّه ليس بعيد أن تميّط اللثام عن وجهها الحقيقي، وتجعل من الثقافات المهيمنة مهيمنة فُفعلاً وتجبر غيرها على التزام ما تراه وترتضيه لنفسها، معتمدة في ذلك شتى الوسائل والآليات - وهي على ذلك أقدر - على اعتبار ما تملكه من تكنولوجيات تمكّنها من التوصل والولوج إلى أبعد ما يمكن أن يتصوّره الفكر الإنساني.

ولا يجب بالمقابل أن يكون حديثنا عنها، حديث المستكين المستسلم إلى الضّعف، والقبول بالأمر الواقع كما هو بحلّته، بل إن لنا أن نفعل الكثير، إذا ما أحسنا التفكير، وسدّنا الخُطى، وفكرنا بطريقة سليمة، وبحسنا بجذّ عن أهمّ ما يجعل اللّغة صامدة، قارة، ثابتة، مستمرة، متطورة أمام نظريات الأخرى. فالغربيّون شهدوا - والحقّ ما شهدت به الأعداء - أنّها ذات رفعة وفضل، وأنّ شمسها سطعت على الغرب، وأنّ لها الفضل في شقّ الطرق والمسالك في العصور الوسطى وما تزال غلى اليوم بعطائها المتميّز تسهم بالنّصيب الأوفر فلماذا لا نهض بها لتكون لنا دُخراً؟ علينا أن نبتعد عن النظرة السوداوية المتشائمة إلما هو عليه واقع اللّغة، فالفكر البشري في تطوّر مستمر، واللغة أقدر على مواكبة هذا التطور.

فهناك الكثير من الأصوات التي ترتفع في محيطنا اللغويّ متقدمة، وتعتقد أنّ العربية لغة بعيدة عن مساهمة التطوّرات العلمية والتقنية "بدعوى أنّها متخلّفة عن العصر موعلة في القدم، لا

تؤدي بصفة كاملة غير المضامين القديمة التي تجاوزها الزمن، فهي أعجز من أن تعبر عن مستحدثات الحضارة ومقتضيات التطور العصري الذي يعتمد بصفة أساسية على العلوم والتقنية". (7)

ولعلهم برّروا هذه المزاعم بافتقار العربية إلى مجالات علمية متخصصة، وكذا ندرة المؤتمرات العلمية والدراسات المخبرية التحريية المعبرة عن قدرة العربية على معالجة مثل هذه القضايا العلمية المتطورة، غير أنّ ما تُعزّف عليه لدى علماء اللسانيات أهن ذلك لا يعود إلى اللغة بقدر ما يعود إلى متكلميها، فالظروف التي يعيشها المتخصصون العرب لا توفر لهم المناخات العلمية للإنتاج والإبداع، كما أنّ كثيرا من امكانات العرب المادية لم توجه إلى البحث العلمي الجاد والخلق والدليل على ذلك أنّ الباحث العربي عندما توفر له امكانات البحث في الخارج - الدول الغربية - فإنّ أبحاثه تكون في المقدمة وتحتل الريادة في معظم الأحيان، فلو أنّ ما توافر لهم في البلاد الغربية توافر لهم في أرضنا العربية من مخابر وأدوات ووسائل وراحة نفسية، وإغراءات مالية وغيرها، لكانت أبحاثهم أجود.

إنّ الشكّ والتشكيك، والتقليل من شأن اللغة في عدم قدرتها على استيعاب علوم العصر واحتوائها، تُعدّ مغالطة مرفوضة في عرف أهل اللسانيات المعاصرة ذلك أنّ قيمة وقوة اللغة تتجسّد أصلاً في حرص مُستعمليها على التمسك بها وتوظيفها في شتى الميادين حتى تكتسب مناعة وحيوية تؤهلها بأن تتجاوز حدود العجز والقصور. وهذا الزعم تحدّث عنه الناس قديما وحديثا، فانقسموا إلى مناصر ومناوئ لها ومهاجم إيّاها، بل وما كانت الساحة لتخلو من التعصّب الأعمى لبعضهم ضد اللغة العربية، وللأسف من ذويها والناطقين بها، بقولهم فهي عسيرة النحو، معقّدة القواعد والتراكيب، وأنها على رأي عبد الملك مرتاض - لغة منحطة - . وكل ذلك إدعاء غير مؤسّس، وهي مزاعم مليئة بالحق والدّفين عليها، أو بالجهل بها. وبسبب ذلك نرى البعض منهم ينجح إلى توظيف العامية في أحاديثهم، وربما أحاديث الإعلاميين بوسائل الإعلام من إذاعة وتلفزة، مخلطين إيّاها ببعض ترطينات اللغة الأجنبية الغربية من فرنسية بالمغرب العربي، وأنجليزية بالمشرق العربي. وعلى مستوى بسيط في ميدان السياحة مثلا، فإنّ جدّ اللغة غائبة تمامًا، فهم يتعاملون مع السياح بالأجنبية مباشرة، ويعمدون إلى اعتماد تراكيب أجنبية لا ترقى صوتا ولا تركيبا، فهي تؤدي أكثر ممّا تمتع. ولعمري إنّ معنى هذا في صورته هو امتداد الهيمنة الثقافية

الأمريكية أو الغربية عمومًا، وإنَّها التبعية الممقوتة التي تسليخ صاحبها من أعظم ما يملكه وهو هويته العربية الإسلامية، رغم أنَّ جمال العربية لا يكاد يعادله جمال. فماذا لو كَوَّنَا إطارات بلغة عربية على الأقل لمخاطبة الغربيِّ، وحملناهم على الاستعمال الأنيق والسليم للعربية، وعوَّدناهم على القنّيات والتقنيّات الأساسية للتعامل بها، ولكن للأسف الشديد، كما يقول الدكتور عبد الملك مرتاض: "لكننا نعلم مسبقاً أنَّ الاستلاب الثقافي الذي يعاني منه العرب وأنَّ تهاونهم في تقدير لغتهم أمام الأمم الأخرى، واعتقادهم أنَّ المسألة اللغوية هي مجرد مسألة شكلية... سيجعل من اقتراحنا مجرد نفخ في رماد، وصرخة في واد..." (8)

ثم يشير الدكتور إلى مسألة أخرى مهمّة، فهو يرى أنَّ ما يزيد المسألة تعقيداً، أنَّ كلَّ قطر يعوّل على آخر في خدمتها وتطورها وعصرنتها، بحيث تغدو لغة الحياة اليومية كما تسمى لغة الفكر والعلم والبحث والاختراع... ومثل هذا التواكل سيجعل العربية تبقى على حالها، ولا تتغيّر وبالتالي لا تكون فاعلة ولا مؤثّرة.

فلقد كان لحفظ القرآن الكريم لهذه اللّغة كبير الأثر، حيث جعلها تتبوأ مكانة لا يمكن أن ترتقي لها آية لغة أخرى، فهي لغة الدّين، ولغة أهل الجنتّة، ممّا يجعل منها مقدّسة.

ثم لا توجد لغة ترتقي إلى مستوى عمرها الذي يعود إلى سبعة عشر قرناً على الأقلّ..

ثم هناك ما يعرف بالتقاء الاشتقاقي، فغيرها من اللغات كالاسبانية والفرنسية والإيطالية تعوّل بالأساس في تكوينها الاشتقاقي على اللاتينية أطواراً، وعلى الإغريقية طوراً آخر، ومثل هذا الأمر قد يجعلها تفقد الأصالة والتّقاوة. بينما نجد اللغة الإنجليزية تكاد تأخذ من جميع الأصول اللّغوية بما فيها اللاتينية والعربية في بعض المصطلحات العلميّة، أمّا الفارسية فهي "فارستان: قديمة وقد اندثرت إلا على المختصّين، وحديثة وفيها من الأصول العربيّة ما يفوق نسبة ستين في المائة... وهلمّ جرّاً..." (9)، فالعربية كما نرى، قد يتوهم للبعض أن أثقال الزمن أتت عليها، فغيّرت ملامح وجهها، ولكن الواقع غير ذلك، رغم العمر الطّويل.

وقد يتوهم آخرون أنَّ هذه العربيّة متخلّفة لتخلّف أهلها، فلا هي قادرة على اللحاق بالركب، ولا هي قادرة على إثبات الذات، وأنَّ كلَّ من تمسّك بها عدّ رجعيّاً سلفياً، ماضوياً، يحمله الحنين إلى الماضي، ويغمره الشوق إلى الأزمنة الخوالي.

فكيف يكون الجواب على هؤلاء، لعلنا نجد الإجابة صريحة واضحة في كتاب الأستاذ حسام الخطيب - اللغة العربية - إضاءات عصرية - حيث أنه يرى أنّ العربية ليست قادرة على تناول كل شيء، والتهوض بكل شيء، ولا هي أيضا خاملة متخلفة وعاجزة عن النهوض بأي شيء، وبالتالي فهو قد جاء بهذا الرأي ليقوم مقامًا وسطًا بين أولئك وهؤلاء، فنجدته يتساءل: إنها لغة أزيلية حقًا، ولكن هل ننظر إلى هذه الأزيلية فيها على أنّها مزينة ومُحمّدة، أما على أنّها عبء ومرزاة؟ ففي تصوّره الخاص، لا يجعل من أزيليتها محمّدة ولا مرزاة، فهي "الغة كبيرة يسمح لها كبرها وعظمتها بأن تتكيف بسرعة على التحو الذي يُراد لها، وخصوصًا في المجال الثقافي بشرط واحد ووحيد: أن يرقى أهلها إلى مستوى الإيقاع الحضاري للعصر، وأن يستعيدوا الثقة في النفس، فيبادروا إلى الإيمان بقدره لغتهم." (10)

وإذا ما أردنا التّدايل في التّكيف مع كلّ العلوم العصريّة والتّجربة السّوريّة رائدة في هذا المجال، إلى جانب التّجربة الأردنيّة، بل إنّ التّجربة الجزائريّة قريبة منّا، فهي وإن كانت تخطو ببطء - رائدة في المغرب العربيّ حيث استطاعت إلى حدّ ما أن تمّخو رطانة اللغة الفرنسيّة من بعض الإدارات الجزائريّة، كما أحلّت اللغة العربيّة محلّ الفرنسيّة في جميع مستويات التّعليم الثّالثة بما في ذلك فروع التجارة والاقتصاد والحقوق والفلسفة والرياضيات، وعلم الأحياء... إلخ...

إلا أنّ هذا لا يعني البتّة أنّ العربيّة تجاوزت الحنة، وأنه قد تمّ التّحكّم فيها بدرجة عالية بل إن الجميع مدعوّ لتكثيف الجهود وتنسيقها وتوحيدها لغرض التّوصّل إلى نتائج مثمرة من شأنها أن ترفع من شأن اللغة، وترتقي بها، حتى نصل إلى نفص غُبَارِ الخمول بصفة كليّة عن اللغة العربيّة. وهذا العمل لا يأتي - برأينا - من فراغ أو فضاء وإنما وجب رسم خطة عملية فاعلة، تُحدّد من خلالها الخطوات الواجب اتّباعها للنّهوض بها، ولعلّ من أساسيات هذا العمل، البَدْءُ بالحديث عن الجماع العمليّة اللغويّة، التي ما قُتِنتْ تبحث في القضايا العربيّة في مختلف دوراتها ومجالسها، ثم تكتفي بنشر مقرراتها في مجلّاتها المختلفة والتي يقلّ قراءها.. والأصل وجوب تعميم هذه المفردات اللغويّة بين عامة المتعلّمين العرب في المستويات التّعليميّة الثّالثة، وتوضيح الملاحق في كتب القراءة والنحو المخصّصة والمبرّجة لهذه الفئة، لتعمّ الفائدة، وبالتالي تنقّي الألسنة وتُظهِر شيئًا فشيئًا من اللغات الأجنبية، والألفاظ العاميّة في حياتنا العامّة، ويندرج ضمن هذا الصحافة والتلفزة والإذاعة ومختلف الأحاديث الثقافيّة المبسّطة.

ثم يجب علينا نشر نوع من الوعي اللغوي في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا، وجميع مؤسساتنا الثقافية بضرورة اعتماد النقاء اللغوي الخالص، واستعماله في مختلف الممارسات الكلامية، وفي ذلك تحية للأجيال المقبلة كي تتحمل أعباء الرسالة، وتقوم بما خير قيام، كأمانة في أعناقها، لتنفض عنها غبار الحمول، وسوداوية الزمن التي لفتها حيناً من الدهر.

وأما عن اللغة في التعليم العالي ومجال البحث العلمي، فالأساتذة يتلقون مشكلة ارتفاع طاقات جبارة لتذليل جميع الصعاب المتصلة بلغة التبليغ - اللغة العربية -.

والحقيقة أنّ بقية اللغات أيضاً تعاني من هذه المشكلة، فكثيراً ما تحاول الفرنسية التخلص والانعقاد من هيمنة الإنجليزية في مجالات تقنية عدّة، وتخصصات علمية متنوعة وعقبة كهذه ليس من السهولة التخلص منها دون تضافر الجهود، والتفاف القوى، وإصباح كلّ ذلك بالكثير من الإخلاص والوفاء والمحبة لهذه اللغة، مع مراعاة الانفاق على مختلف المشاريع المخصصة للارتقاء باللغة. ولعلّ رصد الجوائز المعتبرة لعلماء اللغة أو طالبي العلوم أو مبتكري الأفكار والطرق الخليفة بترقية اللغة لتبوء المكانة الطبيعية لها بين أكثر اللغات المعاصرة تطوّراً وحياة، لعلّ كل ذلك يزيد من ارتقاء اللغة وارتفاع شأنها، وعلوّ ذكرها، وتعميم استعمالها، وتسهيل ركوها.

ثم إن هناك قضية على درجة كبيرة من الأهمية، وهي قضية الاتصال - فاللغة من أجل وظائفها التواصل، فلغة الاتصال والاتصالات هي مفتاح السيادة عند الدول وهي وسيلة مخاطبة الشعوب، وهي أداة لتبليغ مختلف القضايا والأسس السياسية والثقافية والإيديولوجية للمتلقين: سواء كانوا مواطنين أو غير مواطنين لأنّ العالم اليوم أمسى قرية واحدة بفضل الاكتشافات العلمية المذهلة المتعلقة بتقنيات الاتصال بين الناس من مشارق الأرض إلى مغاربها.

ولعل أهمية لغة الاتصال تنبع من كون أنّ القائمين على أمرها، وبحكم مخاطبتهم للملايين من المشاهدين، بالقياس إلى الصحافة المسموعة والمرئية وغير ذلك... فهم بذلك - دون شك- يسهمون وإلى حد بعيد في نشر اللغة العربية السليمة، وتعميم استعمال النقي من الألفاظ، وبالتالي محور الرطانة الأجنبية والعامية ليحل محلّها جديد الألفاظ الذي ستتعود عليه الأذان سماعاً، والألسنة نطقاً، ومنه تتسع دائرة الفائدة المرجو تحقيقها وبلوغها.

وإنه ليجدر بي وأنا أصل إلى العنصر الأخير من المقال، أن أتكلّم عن تلكم الفئة من أبناء اللغة العربية، والذين فُتِنُوا ببريق الحضارة الغربية وتهاويلها، حيث نراهم تنكروا لها، وقلّبوا لها ظهر

الحجن، وأتموها بالعجز والضعف والقصور والتخلف وشكّكوا في قدراتها وامكاناتها التعبيرية عن مختلف ضروب العلم والمعرفة ومستجدات العصر، ونَسُوا قول الشاعر:

وسعت كتاب الله لفظا ومعنى فكيف أعجز عن وصف آلة.

ويقول:

أنا البحر في أحشائه الدّر كامن فهل سألوا الغوّاص عن صدقاتي.

كما ذهبوا إلى تحميل اللغة أسباب تخلفنا العلمي والتكنولوجي، ولمن أراد الاطلاع على هذه الدّعوات فكتاب: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر - محمد محمد حسين - يجد الحديث مستفيضاً عاجلاً ومأجلاً لهذه الدعوات حيث يقول صاحب هذا الكتاب "يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوروبا، فإنني كلما زادت معرفتي للشرق زادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عني، وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقني بها، وزاد شعوري بأنها متي وأنا منها، هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سراً وجهراً، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب" (11).

فمثل هؤلاء لا يرون اللغة قادرة على مواكبة اللغة العلمية المعاصرة، وإنما ألتئق بها أن تبقى خاصة بالشعراء، وحبيسة بطون المعاجم المختلفة، فاقتارها للمصطلحات العلمية يحتّم عليها بشكل أو بآخر الاستعانة باللغات الأجنبية لاستكمال العملية التعليمية وبالأخص التعليم العالي، وهو طبعاً موقف مرفوض علمياً.

ولا مجال لمناقشة هكذا فكرة، ولربما فُتح لها مجال آخر، لأنّ الصّيحات التي من هذا النوع أكثر من أن تحصى، وأشهر من أن تُعدّ، وأنّ تقدّم الإجابة لهؤلاء لا محالة ستكون مفعمة بالمرارة، وربما معبرة عن خيبة أمل.

وإذا كنّا نؤمن بالتّقوقع والبقاء في دائرة اللغة العربية، دون الاستفادة من خبرات اللّغات الأجنبية، واعتمادها كأدوات تطورية في الانفتاح على آفاق المعرفة المعاصرة، وأنّ اتقانها عدة الباحث أيّاً كان تخصّصه، فإننا في المقابل نؤمن أنّ: "العربية لغة قادرة على التعبير عن شتى فنون العلم، وأنّها استوعبت كلّ ما نُقل إليها من علوم الأمم الأخرى، وأنّه ينبغي علينا الآن أن نثبت أنّ اللغة العربية ليست مقتصرة على جانب الأدب والشعر والغناء، وإنما تقوم إلى جانبها وحدة اللغة في الكتاب العلمي العربي" (12) ثم يتبع قوله: "لماذا نحكم على اللغة العربية بهذا الحكم القاسي ونقودها إلى ذلك

المصير السيء، وهي في نفسها - كما أثبتت - قابلة للتطور، وقادرة على الحياة، إنه لا يجب أن نحمل لغتنا وزر أبنائها، ولا نلقي عليها تبعة عجز العاجزين". (13)

ومن هذا المنطق وجب علينا التحلي عن فكرة الجمود والركود والخمول والخوف الذي طالما وسمت بها اللغة العربية، وبخاصة أن التحدي اليوم كبير وخطير، إنه ذلك التحدي العلمي والتكنولوجي المتميز بالدرجة الأولى: "فاستعمال اللغة العربية في المجالات العلمية والتوحي عبرها إلى إنتاج المفاهيم العلمية في مختلف الميادين يطور قوانينها، وأنماط تراكيبها، وطبيعة بناءاتها، ويجعلها أكثر منطقة وعقلانية". (14)

فمثل هذه الرؤية المتميزة، قد تشكل حائط سند لاستراتيجية تطوير اللغة العربية انطلاقا من الواقع العربي المتميز، الذي يقوم على استيعاب الماضي ووضعه في الحسبان والتطلع إلى المستقبل وفتح الآفاق شاسعة وواضحة المسالك والدروب، لغل ذلك يمكن آجلا أم عاجلا - من إضفاء الصبغة الحضارية على لغتنا ومجتمعنا وهويتنا.

ذلك أن الرغبة المعرفية والطموح إلى مختلف القضايا العلمية التكنولوجية المتطورة سواء كانت في مجل العلوم التجريبية أم العلوم الإنسانية، تقتضي التمكن العلمي واللغوي بلغة عربية علمية سليمة المعنى والمبنى، قوية التماسك، حسنة السبك، متكاملة المصطلحات، بعيدة عن الانحراف والشذوذ والعناء والمخادعة والتلفيق.

الهوامش:

1- منتصر عبد العليم - التفكير العلمي الإسلامي - مجمع اللغة العربية، القاهرة: ج 15 ص. 35

2- عز الدين صحراوي - اللغة العربية وتحديات العصر - مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية - جامعة فرحات عباس سطيف - العدد الأول - أبريل - 2004.

3- أحمد السيد محمود - شؤون لغوية - 1989م. دار الفكر - دمشق - ص: 46.

4- محمد المبارك - خصائص العربية - 1960م، ص: 76.

5- عثمان أمين - فلسفة اللغة العربية - ص 36، ط 1، 1961م.

6- محمد السويسي - العربية لغة العلم في القرن الرابع للهجرة. مجلة دمشق عدد 4 ص. 677.

7- أحمد السيد محمود، شؤون لغوية، ص: 46.

8- عبد الملك مرتاض - مقال للغة العربية - إضاءات عصرية - العربي العدد 458 لسنة 1997م.

9- المرجع السابق.

10- حسام الخطيب: اللغة العربية - إضاءات عصرية - الهيئة المصرية العامة للكتاب: ص: 16.

- 11- محمد محمد حسين: الاجتاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ج2، ص: 21. 22.
- 12- مازن المبارك: اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي: ص: 40. دار النفائس - بيروت.
- 13- المرجع نفسه، ص: 32.
- 14- حطب زهير: انعكاسات تدريس المواد الاجتماعية باللغات الأجنبية في المراحل ما قبل الجامعة: مجلة الفكر العربي، العدد 96. ص: 126.